"فيلاّ عبد اللطيف" مهد الفنون التشكيلية في الجزائر

"VILLA ABDELLATIF" THE CRADLE OF PLASTIC ARTS IN ALGERIA

مخالدي محمد [1]،

[1] جامعة وهران1 أحمد بن بلّه (الجزائر) ،MAKHALDI4@GMAIL.COM

تاريخ الإرسال: 03/02/2019 تاريخ القبول:03/09/2020 تاريخ النشر: سبتمبر/2020

الملخص:

يتناول هذا المقال بالبحث في بدايات الممارسة التشكيلية في الجزائر، من خلال الورشة الأولى التي افتتحها الفرنسيون في (فيلا عبد اللطيف)، محاولين توضيح العوامل التي دفعت إلى اختيار هذا المكان والأهمية التي تكتسيها، حيث افرز ذلك النشاط تجربة جزائرية في الفنون التشكيلية هي رائدة في الوطن العربي، كونها سباقة إلى مسايرة الحراك التشكيلي في أوروبا خلال مرحلة الحداثة، بعد أن حولها الفرنسيون إلى ورشة للفنون التشكيلية استقبلت العديد من الأسماء الفنية المعروفة في فرنسا وأوروبا آنذاك، إلى أن افتتحت مدرسة الفنون الجميلة في الجزائر سنة 1920م.

وقد خلصنا إلى ما لهذه الدار من أهمية ومكانة، وكيف يمكن أن تستغل مجددا في مجال الفنون التشكيلية، لما تمتلكه من قيمة تاريخية وثقافية ورمزية، جمعت بين الأصالة العثمانية والروح الأندلسية.

الكلمات المفتاحية: التشكيلية ،دار عبد اللطيف، الجزائر، ورشة، الأتراك، الفرنسيين.

Abstract:

This article examines the beginnings of plastic practice in Algeria, through the first workshop opened by the French in Villa Abdul Latif, trying to clarify the factors that led to the selection of this place and the importance that it takes, where this activity was created Algerian experience in the plastic arts is a pioneer in The Arab world, being the first to follow the plastic movement in Europe during the stage of modernity, after the French turned to a workshop of plastic arts received many of the names of the known art in France and Europe at the time, that opened the School of Fine Arts in Algeria in 1920, We have come to terms with the significance and place of this house, and how it can be reused in the field of plastic arts for its historical, cultural and symbolic value, which combined Ottoman and Andalusian heritage.

Keywords: Fine Arts, Dar Abdel Latif, Algeria, Workshop, Turks, French.

المؤلف المرسل:مخالدي محمد ، الإيميل المهني: MAKHALDI4@GMAIL.COM

مقدمة:

تزخر الجزائر بالعديد من المقومات التراثية المادية والمعنوية عبر مختلف مناطقها الشاسعة، بحكم التنوع الحضاري والثقافي الذي ساد الجزائر قديما وحديثا، وقد خلّفت الشعوب الوافدة إلينا مسالمة كانت أو مستعمرة معالم عظيمة القيمة، منها الآثار المعمارية التي لازالت تصارع الزمن وعنفوان الطبيعية، واهمال البشر أحيانا، إنّ هذه الآثار المنتشرة عبر الكثير من المناطق، ما هي إلاّ ذاكرة حّية للأّمة، ومصدر إشعاع وتنوير للأجيال ولكل من أراد الاقتراب من تاريخ الأّمة والتعرف عليها، كما يمكن أن تصبح تلك الآثار مورداً سياحيا كبيرا يعود على الاقتصاد الوطني بعوائد كبيرة.

ومن بين تلك المعالم الأثرية الكثيرة تحفة معمارية عريقة في قدمها، بديعة في مظهرها، جمعت بين الهندسة العثمانية النفيسة والروح الأندلسية الفاتنة، إنها "فيلاّ عبد اللطيف". هي دار معروفة ومشهورة لدى بعض العاّمة في العاصمة، إلا أن تاريخها مجهول لدى الغالبية من الناس، والقليل من المثقفين من يعلم بمدى أهمية تلك الّدار و تاريخها في العهد العثماني و إّبان الاحتلال الفرنسي، حين أصبحت ورشة حقيقية للممارسات الفنية التشكيلية، إذ بعد الاقتراح الذي تضمنه تقرير للناقد الفرنسي "أرسن الكسندر"(Arsène Alexandre) أمر الحاكم العام آنذاك برد الاعتبار لتلك الدار، وإعادة ترميمها ثم خصصت كإقامة للفنانين التشكيلين وورشة لهم في نفس الوقت تطبيقا لما تضمنه التقرير المذكور.

إذا كانت تلكم هي مكانة الّدار عند الأتراك وعند الفرنسيين فما المكانة التي تليق بها الآن، وما هو الدور الذي يمكن أن تقوم به حاليا؟ وكيف يمكن استغلالها ثقافيا وسياحيا انطلاقا من تلك المعطيات؟.

لا يعقل بان تبقى تلك الدار التحفة والعريقة على هذه الحال من التهميش والنسيان، وهي التي استغلها الفرنسيون وقبلهم الأتراك أحسن استغلال، أّما في جزائر الاستقلال فلم ُيلتفت إليها كما يجب، وغدت في طي النسيان كما الكثير من المعالم التراثية، عدا بعض الأدوار الثانوية أو النشاطات الجانبية التي لا يتعدى صيتها الحدود الضيقة، وهي التي يمكن أن تكون قطبا ثقافيا وسياحيا في الجزائر وفي حوض البحر الأبيض المتوسط وأكثر من ذلك.

ويكتسي هذا الموضوع أهمية كبيرة كونه يزيح الغبار عن معلم تاريخي كبير، ويستخلص الأدوار الريادية التي كان يقوم بها خلال حقبتين هامتين من تاريخ الجزائر(العثمانية والفرنسية).

ويهدف هذا البحث إلى تقديم حقائق تاريخية حول البدايات الأولى للممارسات الفنية التشكيلية في الجزائر، والذي ارتبط بالفن التشكيلي الفرنسي، وكيف يمكن إعادة بعث ذلك الإشعاع الثقافي الفني التشكيلي الذي اختصت به دار عبد اللطيف إبان الاحتلال الفرسي.

2- التعريف ب فيلاّ عبد اللّطيف":

تقع ُ هذه الدار وسط العاصمة الجزائر، قرب حديقة التجارب أو كما تسمى ب "الحاّمة" تعد" دار عبد اللطيف" واحدة من أجمل الدُّور في الجزائر العاصمة، بنيت وسط الغابة القريبة من "مقام الشهيد"،

الذي تم تدشينه في ثمانينات القرن الماضي، وغير بعيد عن "**مغارة سيرفنتيس**" حيث قضى الروائي الإسباني الشهير صاحب "**دون كيشوت**" فترة أسره التي دامت خمس سنوات قبل أن يعود إلى بلاده ويكتب تلك الرواية الشهيرة "[1].

كل ذلك لنظارة المكان بداعته، "لا أحد يعرف متى بنيت دار عبد اللطيف ولا اسم مؤسسها... لكن لا أحد من الذين مروا منها في بداية القرن العشرين يتجرأ على تجاهل إشعاعها الثقافي على الفنون التشكيلية الفرنسية آنذاك..."[2] هكذا بدأ فوزي سعد الله حديثه عن هذه الدار التي استهوت الكثيرين ممن مروا بها أو أتيحت لهم الفرصة للإقامة فيها.

ومن بين الذين تناولوا الحديث عن هذه الدّار التحفة الدكتور **أبو القاسم سعد الله** حيث تطرق لها في مؤلفه الكبير "تاريخ الجزائر الثقافي" في جزئه الثامن "...تنسب كما هو واضح من الاسم إلى عائلة عبد اللطيف التي اشتهرت في القرن الثامن عشر بالثروة والجاه والسياسة والأدب وكان من هذه العائلة وزراء وقضاة. وقد خلدها الشاعر أحمد بن عمّار في قطعة نثرية نادرة وقصيدة فريدة ... وبناءا على وصف ابن عمار فإنّ الفيلا (القصر) كانت غارقة في الاخضرار الزمردي، وكانت آية في الجمال والرونـق، وقد استقبلت ضيوفهـا من الأدباء والسيـاسيين حيث قضوا سهرة من سهرات القصور البغدادية والأندلسية"[3].

أقدم وثيقة تناولت هذا القصر الجزائري العتيق المحاط بالبساتين الخضراء تعود إلى سنة 1715م. في تلك الفترة سكنها عدد من أثرياء وأعيان مدينة الجزائر أمثال علي أغا، محمد آغا، والحاج محمد خوجة وزير البحرية، كما تداول على الإقامة بها كل من زوجة أحد المسئولين الساميين في السلطة بالايالة، بالإضافة إلى السيد عبد اللطيف الذي اشتراها بألفي (2000) دينار ذهبي أي ما يعادل 80 ألف فرنك فرنسي بقيم النصف الثاني من القرن 19م. وإذا كانت أسماء الملاك السابقين الذين تداولوا على هذه الدار قد دخلت طي النسيان، فان اسم عبد اللطيف مازال حاضرا بقوة لأنه تحول إلى بطاقة تعريف هذه التحفة المعمارية التاريخية وقد يكون ذلك بسبب كون عبد اللطيف، زيادة على ثرائه ورقيه الاجتماعي شاعرا ومثقفا من نخبة العاصمة الجزائرية قبل قرنين، جمع في داره زُبده الشعر الجزائري آنذاك في مجالس أدبية وسهرات شعرية فائقة الجمال..."[4].

بعد الاحتلال الفرنسي لمدينة الجزائر مرت الدّار بمراحل جد صعبة إذ استغلت من طرف السلطة الاستعمارية لأغراض عسكرية، حيث استغلها العسكر وحولوها إلى مستشفى عسكري ومركز نقاهة لجنود الاحتلال، إلا أنّ مالكها الشرعي آنذاك السيد محمود بن عبد اللطيف تمكن من استرجاعها سنة 1834م بعد جهود جبّارة استدعت تدخل الوزارة الحربية في باريس، بعد ذلك استأجرها يهودي اسمه "شيرس أو (شبلي) أبو قية لمدة ستة سنوات مقابل 1000 فرنك سنويا والذي أعاد كراءها بدوره إلى السلطات الفرنسية، بعد ذلك اشترتها السلطات الفرنسية وتحولت إلى ملكيتها نهائيا بعد أن دفعت فيها 75000 فرنك وأصبحت تابعة ل الشركة الفلاحية التي كانت تدير حديقة التجارب (jardin d essai).

3- الاستغلال الثقافي لهذه الدار من طرف الفرنسيين:

أثارت تلك الدار انتباه النخبة الفرنسية آنذاك ولعل أهمهم الباحث المعروف –أرسن الكسندر (Arsène Alexandre) وهو محافظ متحف اللكسمبرغ آنذاك، وكان ناقدا في الفن التشكيلي، قدم تقريرا في مجلة الأخبار (actualité) سنة 1906م، تحت عنوان "**خواطر عن الفنون والصناعات الفنية في الجزائر**"(Réflexions sur les arts et métiers traditionnels en Algérie) وفيه كتب هذا المقطع (إنّ دار عبد اللطيف الواقعة في أسفل المشتل الزراعي هي قصر فخم مشرف على الانهيار وهو رائع رغم حالته المزرية كما أنّه يقع في مكان يسمح بالاستفادة من الشمس والطبيعة، فيما اذا قبض له أن يكون مقرا للفنانين يستفيدون من سطحه وأعمدته وساحته الداخلية المزينة بالقيشاني الرائع والحدائق المحيطة به بلونها الأخضر الزمردي) "[5].

لقد كان لهذا التقرير دورا وأهمية كبيرة في تغيير وضعية تلك الدار وكان السبب المباشر في استغلالها وتحويلها إلى إقامة للفنانين التشكيليين الفرنسيين لتكون بذلك اللبنة الأولى لمدرسة الفنون الجميلة، والفضل يعود بالدرجة الأولى إلى الحاكم العام في الجزائر آنذاك سيلستان جونار (Célestin.jonnart) فقد وجد تقرير أرسن الكسندر وما قدمه من اقتراح جميل كل التجاوب والترحيب من طرفه وباشر في تنفيذه، حيث استرجعها ورممها، وهو يقوم بذلك من منطلقات استعمارية بحتة مفادها ان الجزائر امتداد لفرنسا وقد آن الأوان لأن تصبح الجزائر امتدادا لصورة فرنسا وتوجهاتها...

فبعد أن كانت تلك الدار قصرا عربيا استغِلّ كإقامة للعديد من القادة الأتراك، أصبحت بعد العام 1907م مؤسسة فنية تشكيلية تستقبل كل عام ولمدة سنتين اثنين من الفنانين التشكيليين الفرنسيين بعد مسابقة تجرى في باريس[6].

من المؤكد أن ممارسة الفن التشكيلي بدأت منذ 1881م، إلا أن ترسيم دار عبد اللطيف كورشة وإقامة للنخبة من الفنانين التشكيليين الفرنسيين كانت بداية من العام 1907 م، فأصبحت بذلك مهدا حقيقيا للفن التشكيلي في الجزائر، نقول هذا ونحن ندرك ونعلم أن القليل من الجزائريين جدا من كان يعرف ذلك أما الفرنسيين فكان علمهم واهتمامهم بها أكبر، سواء في الجزائر أو في فرنسا، وهذا لا ينفي ولا يقزم أهمية هذا النشاط الراقي حتى وان كانت ملامسة الجزائريين له جد محدودة، فوجوده في أرض الجزائر لابد وان يترك تأثيرا ما، ولابد أن يأتي اليوم الذي يزور فيه موهوب جزائري تلك الدار الورشة وسيأتي اليوم الذي ينخرط فيه الفنانون الجزائريون في ذلك النشاط الذي افتقرت إليه الدول العربية جميعا آنذاك ...

4- أشهر الفنانين الذين ارتادوا هذه الدار:

"في العام 1819 م أطلق "غوتة " أشعاره التي يقول فيها:

الخراب يعم الشمال، والغرب، والجنوب

هوت العروش، وسقطت الممالك

فامض إلى الشرق البعيد.
واستنشق الأنسام الطيبة.
إلى أصقاع الخمر والعشق و الغناء
ولتبعث هناك حياة جديدة."[7]

إن مثل هته الدعوات هي التي دفعت بالعديد من الفنانين التشكيليين على غرار باقي المثقفين آنذاك للسفر إلى بلاد الشرق، و كانت الجزائر مستهدفة من أشهر وأكبر الفنانين التشكيليين الفرنسيين آنذاك، ممن كانوا خلال تلك الفترة يمثلون رواد الفن الحديث في أوروبا منهم اوجان دولاكروا واوجان فرومانتان واتيان دينيه وغيرهم، إلا أن تأسيس فيلا عبد اللطيف كدار للفنانين التشكيليين الفرنسيين سهلّ تلك العملية على الفنانين وأصبحت قِبلة للفن من مختلف أنحاء العالم.

"وتبلورت بفضل هذه الدّار التحفة التي أصبحت تشبه في الأربعينيات والخمسينيات كبريات الورشات الفنية في حوض البحر الأبيض المتوسط، مثل الفيلا "ميديسيس " La villaMédicis– الإيطالية ودار "فيلاسكيز "(Casa Velasquez) الإسبانية، سوق الجزائر للوحات والتحف الفنية قائمة بذاتها يتنافس فيها الأثرياء الكولون والسياح الأنجلو ساكسونيون على اقتناء أجملها وأشهرها، خاصّة إذا كانت تحاكي أزقة القصبة وسطوحها أو مقبرة القطّار ومنظر خليج الجزائر الساحر"[8].

وقد ذكر عفيف بهنسي من الفنانين الذين أقاموا في فيلا عبد اللطيف من أمثال ماكسيم نواره M.Noiré الملقب بالفنان الجزائري في لوحته (ولادة في الصحراء) و (أغنية الناي) و (ياسمين الساحل) ومن أمثال ليون كوفي L. CAUVY الذي أصبح التصوير الجزائري على يديه أكثر نزقا وأكثر نهجيه، وليون كاري L.Carré الذي اكتشف الأناقة والدقة في الطبيعة الجزائرية.

- شارل دوفران (Charles Dufresne) ،1872– 1938، أ حد كبار الفن التكعيبي الفرنسيين تخرّج من دار عبد اللطيف هو الآخر.
- بول دوبوا P.E.Dubois من أبرز الفنانين الموفدين إلى الفيلا، تحصل عام 1927م على الجائزة الكبرى.
- جان لونوا j.Launois توفي عام 1942 في وهران وكان قد أوفد عام 1920م إلى فيلا عبد اللطيف

وكذلك الأمر بالنسبة لأدولف بوفرار، واوغستان فيراندو، ولويس بيرتوم...، الذين ألهموا بأعمالهم الرائعة حول قصبة الجزائر....

هؤلاء وغيرهم كثير ممن زار تلك الدّار أو أقام بها، ونحن لا نعرف الكثير منهم، فإذا كنا نعلم بعضا ممن أقاموا بها بعد 1907 فإن الفنانين الذين زاروها أو أقاموا بها قبل ذلك أي منذ 1881م ،حين كانت ورشة غير رسمية للفن التشكيلي ، غير معروفين ولم يؤرخ لهم لان تلك الإقامات والزيارات كانت غير منظمة أو مبرمجة، ولم تكن هناك دوافع أو عوامل للتأريخ لها.

5- وضع هذه الدار بعد الاستقلال:

لم تتوفر لدينا المعلومات الكافية التي تبين لنا حال الدار بعد الاستقلال إلّا أنّ المؤكد أنها بقيت في طي النسيان والإهمال كباقي الآثار والمعالم المنتشرة في الجزائر، إلى أن حظيت بين عامي 2006 و2008 بعملية ترميم أشرفت عليها وزارة الثقافة، واستعادت في الوقت الحاضر كل جمالها ورونقها، وصارت تجسد مرة أخرى اختصاصها التراثي ومصيرها الجديد كإقامة للإبداع وفضاء ثقافي ومقر ل **الوكالة الجزائرية للإشعاع الثقافي**، كما قد اكتشف مؤخرا بفيلا عبد اللطيف بالعاصمة، معلم أثري يتمثل في نظام للسقي يشبه نظام "الفوقارة" بالجنوب، يرجع إلى القرن ال 17 من العهد العثماني، حيث تم الاكتشاف صدفة خلال عمليات الترميم وإعادة التأهيل بالفيللا.

"وقد تّم الوصول إلى هذا الاكتشاف خلال عمليات إعادة الترميم لفيلا عبد اللطيف التي يعود تاريخ إنشائها إلى القرن السابع عشر، وذلك في إطار تأهيلها وتحويلها إلى إقامة الفنانين وهذا جاء بعد رفع أطنان من التراب التي تعمد الاستعمار الفرنسي أن يردم بها الكثير من أجزاء الفيلا، سيما تلك التي تكشف تميز المجتمع الجزائري كالحمامات والحوض الذي قاد المختصين للوصول إلى قنوات السقي التي تشبه المشط وتعمل على تزود مختلف الحدائق المحيطة بالفيللا بالماء، وقد كان هدف الاستعمار طمس الشخصية والهوية الجزائرية ومحو أي تميز من شأنه أن يبرز خصوصية وأصالة الشعب الجزائري"[9].

تُستغل الدار حاليا كمقر "**للوكالة الوطنية للإشعاع الثقافي**" وقد حاول القائمون عليها إعادة بعث الدور الثقافي لهذه الدار حيث شُرع في استضافة العديد من الشخصيات الفكرية والأدبية من مختلف الدّول وذلك في إطار مشروع شراكة بين الوكالة الجزائرية للإشعاع الثقافي و "اكت سود" ومن بين هؤلاء الذين استضافتهم الدار الروائي نمرود من تشاد، ليغي غارنييري من إيطاليا، آندري غولاسيموف روسيا، وماثياس إينارد من فرنسا، وفاروق مردام بيك من سوريا، ومينة تران هوي من فيتنام، وإيمانويل لاندون من أستراليا وتيم باركس من إنجلترا وبريتن بريتن باشا من جنوب أفريقيا، والروائي جبور دويهي من لبنان، وباهيه ناخجافاني من الهند، وخوسيه كارلوس سوموزا من كوبا، إضافة إلى الروائي واسيني الأعرج، وخالد الخميسي من مصر، إلا أن كل تلك النشاطات لم تلق الاهتمام ولا العناية الكافية وربما كانت الشخصيات المدعوة قد نالت الاهتمام على حساب أهمية المكان أو انه لم يشر إلى مايوحي بأهمية الحدث، من خلال مكانة الشخصيات الفنية المدعوة والتي لا يستهان بها، بالإضافة إلى المكان الذي هو شامخ في تاريخه وعراقته وقيمه المتعددة.

الخاتمة:

تعتبر هذه الدار بحق تحفة معمارية إسلامية راقية في هندستها وبنائها، ساحرة بحدائقها وخضرتها، زادها المكان تألقا وشاعرية، وتملك هذه الدار تاريخا حافلا بالأحداث السياسية والثقافية

والفكرية هو جزء من تاريخ الجزائر العاصمة والجزائر ككل خلال الحكم العثماني وإبان الاحتلال الفرنسي.

وقد لعبت هذه الدار دورا ثقافيا فنيا وفكريا مهمًا يعتبر رصيدًا للذاكرة الوطنية وحتى العالمية خاصة مع بداية القرن العشرين، حين تحولت إلى محجٍ لكبار الفنانين التشكيليين في فرنسا، وغدت مُنية كل شابٍ يطمح إلى المجد والشهرة.

نرى أنّ ما تملكه هذه الدار من مقومات تاريخية وفنية وثقافية كبيرة جدا لم تُستغل كما يجب، وبالإمكان أن تكون على وضعٍ أحسن بكثير.

إن هذا المكان المسمى ب "فيلا عبد اللطيف" موقع اثري وتاريخي له قيمة وأهمية كبيرة جدا، يندرج ضمن التراث المادي واللامادي الجزائري و المغاربي بل والعالمي، كونها ساهمت في فترة الحداثة في الفكر والفن الغربيين مباشرة، لذا نرى من الواجب ان يعاد النظر في طريقة استغلالها، وبعث وتفعيل الدور الذي بالإمكان ان تقوم به، فالمفروض ان تطور وسائل الإعلام والإشهار والتنقل يعمل على تسهيل الاستفادة من هذه الدار كمركز إشعاع فكري وثقافي وكإقامة تاريخية تقليدية ومعلم أثري باهر.

التوصيات:

على ما توصلنا إليه من خلال هذا البحث فإننا نقترح التوصيات الآتية.

- العناية بهذه بالدار بترميمها وحمايتها والاهتمام بها من اجل الحفاظ على هيئتها وطبيعتها المعمارية وقيمتها التاريخية.
- استغلالها كمركز للإشعاع الفني والثقافي، كما كانت عليه في الماضي أو أكثر.
- إعادة بعث النشاط التشكيلي لهذه الدار، لأنه مناسب لها، إذ لا يستدعي أعباء تنظيمية.
- إحاطة النشاطات المقامة بهذه الدار بتغطية إعلامية لائقة، وبرعاية من السلطات مباشرة.
- ربط هذا الموقع بشتى النشاطات الفكرية والفنية الكبرى، وجعله محجًا للمثقفين والفنانين الذين يزورون الجزائر.

المراجع

1 – الخير شوار، دار عبد اللطيف تتحدى القرون وتفتح أبوابها للروائيين، الشرق الأوسط 07،/أغسطس/2011
2– فوزي سعد الله، قصبة الجزائر الذاكرة الحاضر والخواطر، دار المعرفة، الجزائر،2007م، ص87.
3 – ابو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ج8، دار الغرب الإسلامي، 1998، ص 385 .
4 – فوزي سعد الله، المرجع السابق، ص87.
5 – عفيف بهنسي، اثر الجمالية الإسلامية في الفن الحديث، ص 130
6 _ دراسة اللازار، Alazard ، ودراسة انجلي – Angele ، عن هذه الدار.
7 –-زينات بيطار، الاستشراق في الفن الرومانسي الفرنسي ، عالم المعرفة ، 1998، ص 192
8 – – فوزي سعد الله، المصدر السابق، ص87.
9 – جريدة الحياة العربية ، دار عبد اللطيف محج للمثقفين والهام للفنانين 2013/05/31 الرابط (https://www.djazairess.com/elhayat/33146)